لو أن الفتى الباكي حجر

ممدوح عدوان

هذا زمانٌ مِن حَجَرْ
الظلّ وسْطَ الصيف مات من الضجر
والسيفُ وسْط الحرب مات من الضجر
والماءُ في الأنهار قد أضحى حجر
هذا زمانٌ من حجر
إن شئت أن تحيا عزيزاً
كُنْ حجر
واحمل حجر
واضرب حجر
مطر تيبَّس في شتاءٍ قاحل
للغيم جلدٌ صار ينفر كالإبر
ورق تحجَّر في الشجر
والريح تخجل حين تأتي دونما مَطَرٍ
وقد نسيتْ، مع الغيم، المطرْ
فتمرّ شفرتها على الأشجارِ
تسلخها
تهزّ جذوعَ نخل شاحبٍ
وعلى رؤوس الناس ينهمر الحَجَرْ
حجرٌ يرنّ على حجر
حجرٌ.. وينطلق الشرر
هذا الهشيم،
وكان مزهواً على دمنٍ،
يجفّفه الصقيعُ
وسوف يفضحه الشَّرَرْ
حجرٌ من الصوّان يحمل ناره سرًّا
يبوح بها لزند فتى تعبّأ بالمراره
ولدٌ خلا من أيّ همّ
في حساب الربح
أو قلق الخسارهْ
هل كان يلعب ذلك الولد الذي
رشق الحجاره؟
أم تلك آيته:
هنا خصمٌ
هنا حَجَرٌ
وبين اللهو والشغب الأبيّ
تمرّ أنهار الجساره
وتهل أمطار الحجاره
هل كان يعرف أنه سمكٌ
وأن البحر مثقوبٌ
وهذا الماء يُسْرَقُ في الدجى
فاختال، مذبوحاً، برقصته
تسلّم «أولاً» في دبكة القتلى
و «شوبش»
ثم ألقى بالحجر
رقصٌ.. كأن الموت لعبتهُ
كأن الأرض لم تنجبْ
ولم تَنْده سواه
فشبّ يحمل وترها
ما زال في فمه مذاق حليبها
كرمى لعينيها إذاً،
سينخّ وسط الرقص دون مذلّةٍ
فيمسّ ركبتها
وترفع بالفخار جبينهُ
فيصير ناراً في وتر
ويميل منتشياً فيلتقط الحَجَرْ
رقصٌ على إيقاع طبل الموتِ
أغنية من البجع المودّعِ
دمعة مسحت بمنديل البطَر
ولد رأى زمناً يقاد إلى المسالخ، ما انتظر
ولد يمدّ يداً إلى وكر الأفاعي
دون أن يخشى الخطر
ولد يمدّ يداً مقاتلة يشيل بها حَجَرْ
حجرٌ بلا معنى ولا لون
يطير إلى الغزاة
يصير أسود
والبلاد تصير كعبتهُ
ومن حجر إلى حجرٍ
صفت أرض بتربتها الطهور
فجاءها وجع المخاض مبكراً
في ظلّ زيتون الخليل
وتجيء معجزة القتال
فينطق المنسي في مهد من الحجر الجليل
وتتوه قافلة الملوك
يدلّها حجر إلى الطفل الجميل
طبخوا له الأحجار
كي ينسى مذلته
فعلّمهم
بأنّ حجارة الطوفان تنفعُ

في مقارعة مع الطغيان
في الزمن البخيل
حجرٌ يغادر أرضه فرحاً
فتنهار السدود
حجرٌ يزاح فترتمي الأبراج عن أعتى القلاع
وترتمي كلّ الشواهد عن مقابرها
وينبعث الجدود
ولد رأى وجه الضحية في القضاة
رأى الخناجر تختفي
تحت المعاطف وابتسامات الشهود
حجرٌ
وينكسر الزجاج
عن الدفيئات
التي حضنت بيوضاً
كي تفقّس في هزائمنا
ولاة نيّئين
ولد يرى عري الملوك
فيعلن الخزي المخبّأ
تحت غطرسةِ الديوكِ
يسجّل العري الذي يخشون
نقشاً في حجر
ولدٌ يشرّش في الزواريب العتيقةِ
كي يلقّح بالعناد
فلا يصاب بهجرةٍ
أو بانتكاسات السفرْ
يرمي حَجَرْ
وتجيئه الطلقات تنبح

يستحيل إلى قمر
ويعود منهمراً بأحجار
تعلّم رميها من هجمة الطير الأبابيل
التي من صوتها ترهبْ
هو وحده يغضبْ
هو وحده يلعبْ
لم يلق بالاً للأغاريد التي انطلقت تنخّيهِ
وللصرخات حين دنت تحذّرهُ
ولم يتعبْ
هو وحده الكوكبْ
هو وحده، والكون أعداءْ
وفي يده حَجَرْ
حجرُ الفلاسفة الذي
سيحوّل العتم المرسّب في مفاصلنا
إلى ضوء
فيكشف ما تستّره القذارهْ
يتكشّف الوطن المؤمّل عن مغارهْ
هذي بلاد حوّلت سوقاً يباع بها البشر
يتبغدد الغازي
يريح سلاحهْ
فالسوق تقبله زبوناً
(لم يكن إلا على حقّ)
ومؤتمرات أصحاب المروءة يعتريها الضوء
يكشف ما بها من «بورصاتٍ»
والسلاح المشترى بالخبز
حوّل ضد من جاءوا ليشروه
فخبّأ من هزيمة عمرنا خبراً

وغلّف بالعمى بصراً
وحول عيشنا سقراً
يفيض إلى سقرْ
أوَ كنت تدري ما سقر
لولا فتى يرمي حجر؟
هذا زمان من حجر
فتعلّم الدرس الذي أعطى لنا
الولد الفلسطينيّ في زمن الحجر
إن القلوب تجفّ رحمتها.. وتصبح من حجر
لم يبق شيء للخسارة.. كن حجر
لم يبق وجه لم يمرّغ.. كن حجر
لم يبق ما تخشاه
كن في العري أوضح من حجر
لم يبق شيء لم يبع.. فاحمل حجر
هذا خسيسٌ كان يسرق قوتنا
فاضرب حجر
هذا عدوٌّ قادمٌ
فاضرب حجر
هذا عدوٌّ حاكم
فاضرب حجر
لم يبق عندك من سلاح نافع فاحمل حجر
لم يبق صمت ساتر..
فاضرب حجر
واصرخ
لعل الصوت يصبح من حجر
لم يبق من دمع يريح
فآه لو أن الفتى الباكي
حَجَرْ